ابتعد .. لا تدخل الكواليس ..

شروق الهامي

في ملل دخلت .. لم أرغب ولكن صديقي أصر، الأمر بدأ حين وجدت نفسي مؤخرًا أرفض كل طلباته بينما هو لم يتركني كلما احتجته؛ لذا قررت أن أقبل أول طلب يطلبه مني مهما كان.

ويبدو أنه قد انتبه لذلك فطلب أمرًا يتمنى أن يفعله منذ زمن ولم يشجعه أحد أو خجل أن يطلبه من قبل حتى لا يسخر منه أحد،

لقد طلب مني أن أذهب معه لأتيليه ليشتري لوحة لغرفته ... استغربته قليلًا، فمن الآن من الشباب يضع لوحات في غرفته الخاصة، إننا ربما نضع بوسترات .. لكن لوحات وبملء إرادتنا فتلك شبه مستحيلة، ولكن قبل أن أعترض تذكرت قراري مع نفسي فوافقت.

في المساء أخذني إلى منطقة غمرة ... هناك أتيليه يقول إنه لطالما مر عليه ولكم تمنى أن يدخله وينتقي منه لوحة لغرفته من تلك اللوحات التي خطفت قلبه منذ زمن ولم يتمكن أبدًا من أن يروي ظمأه بها.

دخلت خلفه ووقفت لثوان أمام لوحة غريبة، وقبل أن أنتقدها وجدت صوتًا لرجل كبير يأتي من فوقي، نعم فوقي ولم أفهم إلا حين التفت فوجدته طويلًا بشكل مبالغ .. بشكل مخيف، نعم اعتدت أن يكون الفنانون مشعثين أو غير مهتمين بأنفسهم أو حتى قذارى كما تظهرهم الأفلام في التلفزيون .. ولكن لم أتخيلهم بهذا الارتفاع ... كانت ملامحه

تكذب .. لا يمكن أن يكون لشخص بهذا الطول وهذا الصوت تلك الملامح الطفولية.

- حضرتك سامعني؟

انتبهت إني لم أجب عليه وتهت في تأمل ملامحه فتبسمت معتذرًا

- آسف حضرتك قلت إيه؟

- سألتك إيه اللي شدك في اللوحة دي؟

- أصلها ..

مسكت لساني قبل أن أنتقد فربما يكون هو راسمها ... نظرت من حولي أبحث عن صديقي ولكنه كان ذاب من جانبي وشرد بين اللوحات كطفل في محل حلوى أو ألعاب فكان عليّ أن أتحدث مع الرجل الطويل بشكل مهذب.

- لا أدري السبب ولكنها لفتت نظري

- ألا تضحكك؟

نظرت بشك إلى ابتسامته البريئة، أهل هي فخ؟ ربما ولكني لن أخجل من جهلي وسأصارحه بأنها قمة الفوضى.

- هي غريبة، خليط الألوان فيها ملفت لكن أنا مش فاهم فكرتها.

- عندك حق.

شرد وقال وهو ينظر للشارع عبر زجاج الباب الذي لم أبتعد عنه بعد:

- دي إحباطاتي .. لا تجمل الحقائق الصورة أبشع من أن يقتنيها أحد؛ لأنها ربما تسبب له الجنون .. لكنها رُسمت لأخرج هذا الجنون من داخلي .. وأضعها هنا حتى لا تسمح لي أن أعود لتلك الحالة السوداوية مجددًا.

- حضرتك اللي راسم كل اللوح دي؟

- آه ... أنا وسيم حامد صاحب الأتيليه

- أهلًا .. أنا سعيد.

- دي أول مره ليك تدخل أتيليه؟
- آه .. وبصراحة متخيلتش إني أهتم في يوم باللوح بس مش عارف ليه حابب أعرف أكتر ... أنت بقالك قد إيه بترسم؟
- حوالي ٢٠ سنة.
- و ممكن ترسم أي حاجة ولا لوحات الفنانين الكبار بس.
- أنا برسم ...

لم أعد أسمعه ... عيناها أخذتني، مخلوقة صغيرة برزت من خلفه، طوله كان يخفيها لكنه حين بدأ يحكي عن رسوماته مالت هي لتنظر لي ... نظرتها ليست فضولًا لتعرف هو يحدث من ... بل كانت نظرة تحذير، نظرة تقول: «إياك».

لم أفهم فنظرت لها بتساؤل فاعتدلت واختفت خلف الرجل مجددًا .. ماذا تفعل تلك المجنونة خلف الرجل؟

حاولت أركز فيما يقول لأهرب منه في أول فرصة لصديقي ولأنظر ماذا تفعل تلك الفتاة.

- فالصورة اللي تشدني سواء لوحة حد من المشاهير أو المغمورين أو حتى منظر طبيعي برسمها
- لأ بجد حضرتك فنان .. هستأذنك أشوف بقية لوحاتك.
- آه .. اتفضل.

تحرك ليفسح لي فظهر خلفه في الجانب منضدة صغيرة تقف الفتاة ترتب بعض الأوراق عليها وهي منهمكة أو تركز بشدة بحيث لا تلتفت لأي شيء سوى تلك الأوراق.

بدأت ألف على اللوحات، ولكن بعقل شارد، فلم أرهم قط، أقف دقيقتين أمام كل لوحة وكأني أتأملها ... عقلي كان شاردًا في تلك النظرة الغريبة .. لما تحذرني؟ هل لأنها تعمل معه فتعرفه أفضل مني وتحذرني ألا أسأله حتى لا يسهب في

obeikan.com

الحديث وهي تعبت من كلامه ... لا تلك لم تكن نظرة رجاء بأن أخرسه .. إنها نظرة تحذير .. ربما تحذرني ألا أنغمس معه في عالمه .. ولكن لماذا؟؟
اصطدمت في صديقي دون أن أنتبه وأنا أتحرك بجانبي كالأحمق أو الإنسان الآلي بين اللوحات المتراصى .. ابتسم.

- إيه رأيك في اللوحات؟
- أنت بتيجي هنا كتير؟
- آه .. بس مكنتش بدخل .. بتفرج على اللوح من بره وخلاص.

نظرت لها فوجدتها تقرأ ما في ورقة ما فسألته وأنا أشير بهدوء برأسي لها:

- تعرفها؟
- آه دي بتشتغل هنا .. شفتها كتير بس على طول ساكتة ... حتى مع الزباين بتكتب بس وصاحب الأتيليه هو اللي بيتكلم.

تركني صديقي وعاد للتجول بين اللوحات وعدت أنا لشرودي ولأسئلتي حولها .. هل هي زوجته؟ أم ابنته؟ لا أظن .. إنه ليس كبيرًا لهذه الدرجة؟ منذ متى تعمل معه؟ نظرت لها بكل تلك الأسئلة فوجدتها تنظر لي بشفقة وعطف غريب، وبمجرد أن وجدتني أنظر لها رمقتني بنظرة التحذير مجددًا، ثم عادت للنظر في أوراقها.
أنا لا أفهم شيئًا .. إنها تبادلني النظر، إذًا لقد لفت نظرها كما هي لفتت نظري .. لماذا إذًا التحذير؟ وما سبب نظرة الشفقة قبلها .. وقبل أن أذهب إليها لأقول ما لا أعرفه وجدت اللوحة التي أمامي تأخذني

بشكل غريب .. أخذتني حتى من تساؤلاتي .. كانت اللوحة باللون الأصفر والأبيض والأسود والأحمر، الأبيض هو إنسان لا تتضح ملامحه في مركز الصورة بينما الغرفة التي يجلس بها جميع تفاصيلها باللون الأحمر، ولكن ليس قانيًا أو بشكل فج بل بانسيابية تجعلك تشعر باللون الأحمر كأنه لون دافئ كالبني

أو هادئ كالأخضر وليس ناريًا كعادته، أما الدوائر من حولهم باللون الأسود والأصفر، ولكن ليس بشكل كئيب كعادة الأسود أو زاعقًا كعادة الأصفر .. هناك توازن وتناغم بينهما غريب .. هذا الرجل عبقري بحق .. لقد أفقد الألوان طبيعتها .. كما أن الإنسان في مركز اللوحة يدل على الكثير من الأشياء.

- عجباك للدرجة دي؟

نظرت لصديقي بذهول

- آه .. مش عجباك؟

- آه عجباني بس مش لدرجة إني أقف ربع ساعة أتفرج عليها.

- ربع ساعة؟؟ أنت بتتكلم جد.

- ده أنت سرحت خالص .. أنا هجيب اللوحة إلى هناك دي .. شوف لو هتاخدها ولا لأ

تركني مجددًا أمام الصورة وقبل أن أسرح مجددًا في دوائرها سمعتها خلفي تقول:

- هل تعجبك الصورة .. هل تجذبك ألوانها، والتفاصيل ألا تدهشك ... أرجوك لا تقترب، فإن اقتربت فقد كل شيء جماله، فقد رونقه وروعته.

ثم ذهبت وتركتني دون أن تترك لي فرصة لأقول شيئًا .. نظرت حولي فوجدت صديقي يقف مع صاحب الأتيليه وينقده ثمن اللوحة التي اختارها وكانت لحصان أسود يلمع سواده كالأبنوس يجري في أرض

صحراء قاحلة تحت بدر يملأ الصحراء بضوئه .. لوحة مميزة وواضحة وليست كالمتاهة التي أخذتني .. هل أشتريها؟ لا ستفقدني عقلي أمامها.

ذهبت خلف صديقي وقبل أن أخرج ابتسمت للرجل الذي ابتسم لي بسعادة، ثم نظرت لها فوجدتها تبتسم لي وتمد يدها .. فاجأتني فعلًا وقبل أن أتردد سلمت عليها فوجدها تدس وريقة صغيرة في يدي فأطبقت يدي عليها

obeikan.com

ورحلت.

أوضعت لي رقم تليفونها؟ أم كتبت لي كيف أجدها خارج الأتيليه؟ أهو ميعاد؟ لم أرغب في مشاركة صديقي الأمر .. ربما يكون هناك شيء ما مستقبلًا وربما أيضًا مجرد خدعة .. فلأصبر وسأعرف.

بمجرد أن تركني فتحت الوريقة فوجدت نصها: «نعم .. كلما اقتربت ظهرت العيوب، ظهرت الشروخ، وضحت التشققات الصغيرة ... لذا لا تقترب .. ولا تدخل الكواليس».

عيوب؟ شروخ؟ كواليس؟ أتلك مزحه ما؟ أهذا الكلام على صاحب المكان؟ أم عليها؟ أم علي اللوحة؟

لحظة ... الكلام ينطبق علي الكل ... كل هذا ليس عالمي .. هل عليّ الدخول حقًّا؟ أم هو مجرد فضول وسريعًا ما سيخمد؟ إن الفتاة محقة لتمنعني من دخول عالمها، فلا شيء كامل، أدرك ذلك وأعرفه، لأن نفسي نفسها ليست كاملة .. هي لا تسمح لأي شخص أن يقترب منها لدرجة أن يكتشف تفاصيلها .. بالضبط مثلي فأنا لا أسمح لأحد أن يعيش معي أيامي .. ويراني في غضبي أو حزني كما يشاركني أفراحي.

ولكن إلى متى سنعيش في جزر متفرقة خوفًا من الجرح؟